فصل من رواية

رحلة غاندي الصغير

بقلم الياس خوري

قالت أليس إنه مات.

«جئت ورأيته، وغطيته بالجرائد، ولم يكن أحد، زوجته اختفت، كلهم اختفوا، وبقيت وحدي».

قالت أليس إنها أخذته إلى المقبرة، ورأت الناس بلا وجوه. «صار الناس بلا وجوه»، قالت لي: تكلمت معهم ولم نسمع أجوبتهم ثم تركتهم وراحت. وهكذا انتهت الحكاية.

«أخبريني عنه»، قلت لها.

«كيف أخبرك» جاوبتني. «أنا كنت أعيش كأنني أعيش معه ولا أعرف. عندما تعيش لا تنتبه. أنا لم أنتبه لشيء، فقط لا أعرف». هزت رأسها ورددت جملتها «بعرف أنه راح وراح ببلاش».

أذكر كلمات أليس وأحاول أن أتخيل ما حدث، فأكتشف ثقوباً في الحكاية. كل الحكايات ملآنة بالثقوب. لم نعد نعرف أن نروي الحكايات، لم نعد نعرف شيئاً. وحكاية غاندي الصغير انتهت. الرحلة انتهت والحياة انتهت.

هكذا انتهت حكاية عبدالكريم حصن الأحمدي المغايري، الملقب بغاندي الصغير.

ولد غاندي الصغير لا يذكر كيف، وسماه أبوه عبدالكريم لأنه يدعى حصن ولأن والده كان عبدالكريم، وجده حصن ووالد جده عبدالكريم، هكذا وصولاً إلى سفينة سيدنا نوح. لكن سيدنا نوح الذي هرب إلى سفينته لم يكن يتخيل ماذا سيحصل لأحد أحفاده. فسيدنا نوح وأمثاله ممن استطاعوا ويستطيعون الهرب، يجهلون أن الحكاية الحقيقية هي حكاية الناس العاجزين عن الهرب. ولأننا جميعاً نتماهى مع الهاربين وإلا لافترسنا الخوف من الموت، فإن حكايات العاجزين عن الهرب تبدو لنا غرائبية، وغير قابلة للتصديق. تبدو الحكايات بعيدة، ونحن لا نريدها إلا كحكايات. هذا هو السبب ربما الذي دفعني إلى صداقة عبدالكريم حصن الأحمدي المغايري الملقب بغاندي الصغير.

كنت أقف أمامه وأتخيل نفسي وأنا أضع حذائي على لسان صندوقه الخشبي، حين سألته عن اسمه.

«اسمي غاندي»، قال.

«أهلاً بالسيد غاندي».

قلت إن الرجل هو ابن مثقف من نهاية العهد العثماني، عاش في زمن الانتداب وأراد أن يصنع من ابنه زعيماً للاستقلال.

«تشرفنا»، قلت له، وسألته من أين؟

«من عكار»، جاوبني.

و«الوالد، كمان كان يشتغل بالمصلحة».

ابتسم. «لا، الوالد صاحب دكان بالضيعة، وعنده شوية أرزاق ومعزى».

تذكرت غاندي الحقيقي ومعه المعزاة التي بدأ بها ثورته ضد الانكليز، وحكايات الحاج أمين الحسيني عندما أهداه غاندي معزاته، واستبشر يومها الناس، وقالوا تحررت فلسطين.

لكن غاندي خيّب أملي، فوالده لم يسمه غاندي، سمّاه عبدالكريم، وهو لم يسم ابنه نهرو بل سماه حصن. والابن لم يعجبه اسم حصن فسمى نفسه رالف عندما اشتغل في صالون الحلاقة. ومع بداية الحرب احتار ماذا يفعل، فسمى نفسه غسان، لكن الاسم لم يمش، فعاد إلى حصن فضحكوا عليه، وأخيراً يئس وترك الناس يسمونه ما يريدون.

ربما تسميه رالف، ووالده يسميه حصن والست نهى تسميه غسان، وهو يقبل بالأسماء الثلاثة. أما غاندي فالمستر دايفيز هو الذي أعطاه هذا الاسم. قال إنه يشبه غاندي فصار أساتذة الجامعة الأميركية يأتون للتفرج عليه وصار اسمه غاندي. أما هو فيفضل أن يدعوه الناس أبو حصن. لكن لا أحد يسميه هذا الاسم. حتى فوزية زوجته لا تسميه إلا يا رجال. ثم اقتنع بالاسم عندما أضيف إليه لقب الصغير. وهذا من فضل القسيس أمين. فصار هناك غاندي الهند وغاندي الصغير الذي يعرفه جميع أهالي رأس بيروت من مشيته المفركشة وصندوقه الخشبي المعلق في رقبته. كان البويجي الوحيد الذي يعلق صندوقه في رقبته. «كأنه حبل مشنقة»، قاله له مرة القسيس أمين. فضحك غاندي، أو ابتسم على وجه الدقة، لأنه تعلم أن يبتلع ضحكته، وفكر بأن الموت شنقاً لا بأس به. فهو لا يؤلم. هكذا قال له الدكتور عاطف وهو يسأله بعد أن عاد من الفرجة على شنق التنير. والتنير هذا، كان قبضاياً معروفاً، لكنه أخطأ. رمى ماء النار على وجه المرأة التي يحبها ثم قتل زوجها، وزوجها محامٍ طويل عريض فشنقوه. كم هو مختلف عن العسكري وعن شهامته وأخلاقه العالية.

المسألة ليست في الأخلاق، المسألة هي الحبل. الفرق بين التنير والعسكري أن الأول مات مشنوقاً والناس تتفرج عليه، وهو يصرخ ويشتم، ويقول: إن المرأة كانت تخونه وأن زوجها كان كلباً، وأنه ضحية. بينما مات العسكري مرمياً على الأرض في ملهى «بلو آب»، تركوه يبلعط دون أن يلمّه أحد. وحين لمّوه، كان كل شيء قد انتهى.

وغاندي حين مات، كان كأنه شنق بحزام صندوق البويا. أليس لم تجرؤ على فكّ الحزام عن رقبته، لأن ثيابه كانت منتفخة بالماء. خافت أليس من الاقتراب منه، ذهبت وجلبت جرائد عتيقة ولفته بها وبدأت تولول.

وغاندي لا يذكر كثيراً من الأشياء عن طفولته. عندما حاول أن يتذكر وهو يقف إلى جانب ابن عمه في مأتم والده، اكتشف أنه لا يذكر الكثير من الأشياء عن قريته. كانت القرية بالنسبة له مجموعة من بيوت الطين التي يغطيها شيء أبيض. جاء ولم ير الأبيض، رأى طرقات ضيقة وملتوية، ووجوهاً لا يعرفها. لكنه بكى. سقط في البكاء والناس يتفرجون عليه. كأن بكاء الابن على أبيه صار أمراً مستغرباً. بكى غاندي ولم ير شيئاً. كلمه ابن عمه عن ضرورة الزواج، فوافق، وقرر أن يتزوج ابنة عمه فوزية، وعاد إلى بيروت. لا يعرف غاندي كيف اكتشف أقرباؤه مطعم سليم أبو عيون حيث كان يشتغل. كان قد قرر ترك المطعم، ورائحة المجلى، وأصوات تنهدات الست نجاة، ليشتغل مهنة حرة. جاء ابن عمه وأخذه إلى القرية، وعاد منها ومعه فوزية. فور وصوله اشترى صندوقاً، وجلس قرب مطعم «جرجورة»، أمام الجامعة الأميركية، والله فتحها.

بعد الدفن مباشرة ذهب غاندي إلى المغارة. رأى فتحة صغيرة وشم رائحة شواء متعفّن. حاول أن يدخل لكنه لم يستطع، حجارة وأشواك وروائح. هنا، في هذه المغارة يبدأ تاريخ العائلة. كم فكر أن يأخذ ابنته سعاد ويدفنها هناك. لكنه يخاف الله، وليس مثل السيد حصن الذي أخذه، وهو يمسك به من كتفه، كأنه يمسك بكلب أجرب ورماه هناك. غاندي كان يعرف أنه أخطأ، لكنه لم يكن يتوقع هذا القصاص. افترسه الخوف، واكتشف كيف تنشلّ القدمان، ويصبح اللسان كقطعة كاوتشوك في الفم. هنا في هذه

المغارة مات والد جده، وهنا كان سيموت هو. قصة والد الجد كان يعرفها الجميع، لذلك صار اسم العائلة المغايري. الجد المجنون الذي كان اسمه حصن، جنّ في المغارة ومات فيها. يروى أنه دخل المغارة كي يقتل الضبع. كان الضبع الذي يخيف القرية في ليالي الشتاء، يأتي إلى هذه المغارة وينام فيها. دخل المغايري الجد، بعد أن تراهن مع جميع شباب القرية على أن لا يخاف. انتظر الليل ودخل، وكانوا يراقبونه من بعيد، الجميع قالوا إنهم لم يسمعوا صوتاً في المغارة، والرجل اختفى. دخل ولم يخرج. وبعد ثلاثة أيام، خرج الرجل والشعر الأبيض يكلل رأسه، وعيناه بيضاوان، ولسانه ثقيل. قالوا جن حصن، ضبعه الضبع وحنّنه وصار الرحل لا ينام في البيت. عبدالكريم ابنه، أي جد غاندي الصغير، روى لابنه أن والده لم يعد ينام في البيت، صار ينام في البرية ويعوي كأنه كلب أجرب، وبعد أشهر قليلة وجدوه ميتاً أمام باب المغارة.

إلى هذه المغارة أخذ حصن والد عبدالكريم ابنه الذي كان في الحادية عشرة من عمره ورماه هناك.

«كيف يقتل الأب ابنه»، سأل غاندي القسيس أمين، الذي كان يحاول إقناعه بالمجيء إلى الكنيسة والمشاركة في الصلاة.

«الأب لا يقتل ابنه»، قال القسيس، «يأخذه ليقتله، لكن هناك الخروف. إبراهيم أخذ ابنه اسحاق، أنتم تقولون إسماعيل، بسيطة، أخذه لأن هناك الخروف».

«ومن دون خروف» سأل غاندي،

«من دون خروف كانت الدنيا انتهت»، قال القسيس: «من دون خروف، يقتل الأب ابنه، ويقتل نفسه. الله خلق الخروف من أجل ذلك، الخروف ضروري كي يكون الأب والابن».

«فهمت؛ فهمت، بلا خروف مش ممكن». قال غاندي وهو يعود إلى عمله على حذاء القسيس المليء بالثقوب البنية.

«طبعاً يا ابني، لازم تجي على الكنيسة».

لم يكن غاندي يريد إيذاء تلك المرأة، كان يكرهها، لكنه لم يكن يهتم. عاد أبوه إلى البيت ومعه المرأة. كانت سوداء الشعر كبيرة العينين، تنظر كأنها مرعوبة. قيل إن الأب اغتصبها في البرية وجاء بها ليتزوجها. قيل إنها كانت من العرب الرّحل الذين ينتشرون قرب حرش «القموعة»، وأن الرجل تورط بها وخاف من أهلها فتزوجها. صارت الزوجة الرابعة، وكان رقمها الخامسة، غير أن والدة عبدالكريم ماتت بعد أن أنجبته مباشرة. وصار الرجل لا ينجب من زوجاته إلا البنات. بنات يملأن البيت الكبير ورجل حزين لا يعرف ماذا يفعل. حتى هذه الغجرية التي لا يعرف أحد أصلها من فصلها لم تنجب له غير البنات.

عبدالكريم كان الصبي الوحيد. ذهب إلى الكتّاب وختم القرآن وهو في السابعة. وبعدها وضعه والده في مدرسة الراهبات في قرية «مشتى حمود»، على مسافة ساعة من قريتهم. إلى «مشتى محمود»، كان غاندي يذهب ماشياً كل صباح، وحين يعود إلى البيت، كان يخاف من نظرات هذه المرأة التي لم تتوقف عن إنجاب البنات.

غاندي لم يقصد ذلك، لكنها رأته، يستطيع اليوم أن يحلف على القرآن الكريم، أنه لم يقصد ذلك، لكنه لا يعرف لماذا جمد في مكانه. ذهب إلى الحقل ليبول، ثم بدأ. كانت الشمس تميل إلى المغيب، ومشهد الحقل الأصفر في الصيف يسد الأفق بأكوام القمح التي تنتظر أن تدرس، وغاندي يقف، وأمامه يأتي مشهد الراهبة وهي تنحني أمام طاولتها لتلم الطبشورة التي وقعت على الأرض، غابت عيناه وأخذت يده تحتل مساحة ثوب الراهبة الأسود، وغاب في ثوبها لا يريد أن يعود. وجاءت تلك المرأة، برزت له لا يعرف من أين، وبدأت تنهال عليه ضرباً بغصن زيتون طويل. هي تضربه وهو يمسك بقضيبه ويشعر بنشوة غريبة، كأن جسمه لم يعد له. لا يعرف غاندي الصغير لماذا لم يتوقف، صار يبرم في مكانه حتى لا ترى المرأة الشيء الذي في يده، وكانت هي تدور حوله وتضربه. وحين تلاشى العالم بين يديه، رآها تقف كالمشدوهة، الغصن في يدها، تنظر بعينين كبيرتين وفمها نصف مفتوح. فجأة رمت الغصن وهربت. هو أيضاً هرب إلى البيت، وجلس وحيداً

مرتجفاً. أما هي فاختفت.

وفي الليل أمسك به والده من كتفه وأخذه إلى المغارة. لم يقل الوالد شيئاً، وعبدالكريم لم يقل شيئاً. مشى معه بقدمين مرتجفتين، ودخل إلى حيث أمره والده، الذي قال له شيئاً يشبه أنه يجب أن يموت. كان عبدالكريم مقتنعاً أنه سيموت، لكنه لم يمت. والآن، حين يروي الحكاية لأليس، فإنه يكاد يمزج بين إقامته في المغارة وبين حكاية والد جده. يخبر حكاية زوجة الأب، وبعدها يخبر حكاية الضبع، حتى اقتنع بأنه بطل القصتين.

عبدالكريم لم ينم ليلته في المغارة. أكله الخوف والبرد. كانت الدنيا صيفاً لكنه شعر بالبرد يفترسه. لا يعلم من أين جاءته الشجاعة، لكنه هرب. مشى طوال الليل بين الحقول. كان يعتقد أنه يسير باتجاه سوريا، لكنه وجد نفسه بعد ثلاثة أيام من المشي والحكايات التي لا تنتهي في طرابلس. هنا، في طرابلس، بدأت رحلته. من طرابلس إلى بيروت، ومن الفرن إلى المطعم إلى صندوق البويا، ومن النبعة إلى رأس بيروت.

في طرابلس اشتغل في فرن المعلم رشيد. المعلم رشيد عرفه وأخذه إلى الفرن. وهناك شعر بالدفء. نار ودفء ورائحة الخبز والرغيف المدور كأنه بدر. في الفرن عاد إليه خوف المغارة. كان ليل الفرن مخيفاً، غاندي كان يخاف من النوم في العلية وإلى جانبه المعلم جعفر بكرشه ولحيته والعرق الذي لا يتوقف عن التساقط من جسمه. المعلم جعفر أمام بيت النار، والنار تشع في عينيه حتى وهو نائم. يأكل ولا يشبع وينام في الفرن لأنه ليس متزوجاً. كان غاندي يخاف من جعفر، يخاف من شخيره ومن أسئلته الجنسية. غاندي يخاف، يستمع إلى نصائح الست رشيدة زوجة المعلم رشيد وهي تعطيه قليلاً من الطبيخ كي يقيت جسده النحيل.

أحب غاندي طرابلس وأحب السمك. لكن بعد ثلاث سنوات طويلة قضاها بين العلية وبين بيت المرأة الطرشة، وبين توزيع الخبز على بيوت الزبائن، قرر أن يغادر إلى بيروت. لم تعد حياة الفرن تطاق ولم يعد المعلم رشيد كما كان بعد موت زوجته. وعندما طلب منه المعلم رشيد أن يتمرن على العمل أمام بيت النار، شعر غاندي الصغير أنه لم يعد قادراً. قرر أن يترك عمله ويذهب إلى بيروت. لم يقل وداعاً لأحد، حمل أغراضه ومضى إلى بيروت مفتشاً عن مطعم الست نجاة. الست نجاة، التي كانت تزور أهلها في طرابلس بين وقت وآخر، قالت له أن يأتي ساعة يشاء، عندها له شغل مختلف. وجاء إليها، وفي مطعمها تعلم كيف يكون الإنسان وحيداً، وكيف يعيش في البرد. ست سنوات من البرد والخوف، والأشياء تمر حوله كأنه لا يراها. قال غاندي الصغير لأليس إنه لم يكن يرى. كان يقرأ نتفاً من الجرائد من خلال لفّات الخبز، ويذهب إلى السينما، ويرى الزبائن، لكنه لم يكن يرى. الخوف الذي ابتلعه في مغارة «مشتى حين»، جاء معه إلى طرابلس أمام مغارة الفرن، ثم أخذه إلى بيروت أمام تنهدات الست نجاة وإحساسه بالوجع في الركبتين، الذي سيلازمه طيلة حياته. ولم يكتشف أنه يرى إلا حين رجع من قريته ومعه فوزية واشترى صندوق البويا. يومها فهم غاندي الصغير معنى الحياة. قال لزوجته إن عليه أن يدبّر رأسه. «الحياة هي رأسك». وحمل رأسه بين يديه ومضى إلى أمام الجامعة الأميركية. كان يعرف أن الشغل في النبعة مستحيل. فالفقراء لا يصبغون أحذيتهم، وأن الشغل في البرج مكلف جداً، لأن عليك أن تدفع نصف مدخولك للقبضاي الذي يحميك. أما هناك، أمام مطعم «جرجورة»، فتستطيع أن تجلس وتتفرج على بنات الجامعة الأميركة، وتعيش على مزاجك. صحيح أن المدخول كان خفيفاً في البداية، لكن الأيام تغيرت ومشى الحال.

وغاندي كان يخاف من الموت. تحبل فوزية وتلد ثم يموت الولد. أربعة أولاد ماتوا، إلى أن جاءت سعاد وعاشت، وبعدها عاش حصن بصعوبة، بفضل الدكتور دايفيز. وخوفاً على صحة فوزية وصف له الطبيب الكبوت، وتلك حكاية أخرى. ثم لم تعد فوزية تحبل، فارتاح غاندي من الموت ومن الكبوت وانصرف إلى شغله. كان يريد توفير بعض المال كي ينتقل من ضهر الجمل في النبعة إلى الحمراء، والمال لا يصمد. حتى في عزّ المطعم لم يصمد معه قرش واحد.

وأليس تعتقد أن المال لا يصمد.

كانت أليس تقول له إن مال الفقراء مثل الملح يذوب بين الأيدي ويتبخر مع الماء. وتسرد ذكرياتها التي لا تنتهي، من الملازم طنوس إلى الزعيم الأوحد. وغاندي يبتسم:

«أنت يا ست ما بتحبي غير الضباط».

«أحلى شي الضباط»، تجاوب أليس. «أنت شو بعرفك، لـمّا الضابط وعلى أكتافه نجوم السما، بطب على الأرض قدام أجريك، وبيصرخ من الوجع. أحلى شي وقت تتوجع النجوم قدامك، ساعتها بتشوف الدنيا غير شكل. بس كله راح، حتى مصاري ما بقي معي. صرت هيك مثل ما أنت شايف».

وأليس تحب أن تحكي دائماً قصة الملازم طنوس، لأنه عندما ذهب وكانت زوجته تقف على الباب، بكى. وعاد إليها مرة واحدة، لكنها طردته، نامت معه وطردته. أما الزعيم الأوحد فحكاية أخرى.

كانت أليس تعمل يومها في بار «الميرابيل» على الروشة، عندما جاءها الامبرازاريو أبو جميل. كان أبو جميل يعرف أن أليس تتعذّب بعد أن تركها الملازم طنوس. جاء أبو جميل مع الفجر، وذهب معها إلى البيت. وضع قنينة كونياك أمامه وبدأ يشرب ويحكي. حكى لها عن الصفقة الكبرى، «الصفقة الكبرى يا أليس هي الموصل، أنتِ رحتِ على حلب بس الموصل مختلفة، انكليز وجيش ومصاري، وشو ما بدك بصير، في مجموعة راح تروح بعد أسبوعين، الإقامة شهر، المعاش ألفين ليرة بالأسبوع ما عدا البراني، وكل شي على حسابنا، أنت بس قولي ويللي بدك».

الغرفة كانت مظلمة.

قالوا لها، هكذا قال لها الرجل، تدخلين إلى الغرفة ولا تضيئين، تستلقين على الفراش عارية، وبعدها سيأتي. لم يقل من هو، قال سيأتي، وأنت عليك أن لا تفتحي فمك.

انتظرها الرجل في الخارج. كانت أليس متعبة، فاليوم الثالث في ملهى «الموصل الكبير» كان مرهقاً. انكليز وقناني شمبانيا تفرقع في الهواء، واليونانية القادمة من بيروت تستولي على قلوب الجميع، وأليس شبه معزولة، تحس بارتجاف في ركبتيها كلما وقفت. وعندما تدنو من طاولات الزبائن وتجلس ينكمش جسمها. فالأيدي التي تمتد إلى قدميها وفخذيها مختلفة هنا. كأن الأصابع تلتصق بلحمها وتمزّقها. شعرت أليس أنها فشلت في الموصل. اليونانية «أنيتا» هي التي ربحت هذه المرة. فأليس التي استولت على قلوب رواد «الميرابيل» في بيروت، بضحكتها وصوتها المبحوح وسهارها الشاحب، شعرت هنا أنها وحيدة وغير مرغوبة. كأنهم لا يريدون رقصها ولا غمازتيها ولا عينيها الكبيرتين.

في الثانية، صباحاً، جاء الرجل وأخذها. غادرت الملهى دون أن يشعر بها أحد، لتجد نفسها في غرفة سوداء. الستائر مسدلة، رائحة بخور هندي. لم تر شيئاً في البداية، ثم بدأ الظلام يكشف عن سرير عريض وكرسي وطاولة. خلعت ثيابها وعلقتها على الكرسي، واستلقت على السرير. انتظرت طويلاً. يبدو أنها أغفت. استيقظت على يد تلاعب عنقها. شمّت رائحة رجل ولم تر شيئاً. وحين حاولت أن تتكلم وضع يده على فمها ولم يقل شيئاً. سكتت وتركته يفعل ما يشاء. كان بكامل ثيابه، حتى الحذاء لم يخلعه. قبّلها في خدها الأيسر، انحدرت شفتاه وانحدر هو، وتساقط بين قدميها. مكث طويلاً، وأليس كانت خائفة. ارتجافة عضلات فخذيها امتدت إلى كلّ أنحائها. وكان هناك، رائحته فيها شيء من الغبار وشيء من الملح. وحين صعد مرة أخرى وأخذ نهديها بيديه، حاولت أن تبرم باتجاهه لتقبله، لكنه أبعدها وبرم ظهره. فعادت أليس إلى وضعها الأول، عارية ووحيدة ومستلقية على ظهرها. بقيت أليس ساكنة، تركته وأغمضت عينيها، وحاولت أن تنام، بعد فترة قصيرة عاد إليها، صعد ووضع يديه على نهديها، قبلها، وبدا كأنه يريد أن ينام، وضع رأسه على بطنها ولم يتحرك. وبدأ يقرصها في كل جسمها، وهي تتأوه دون أن تصرخ. كان الألم يتدحرج بين كتفيها. شيء من ماري نقوز يعود، شيء من تلك المتعة التي لم تعرفها أليس إلا مرة واحدة في حياتها، ورفضت بعدها أن تعيد التجربة. التجربة تأتي إليها. الرجل بكامل ثيابه يطوف حولها وسط الظلام، ثم يهدأ، وهي ترتعش وحيدة. حاولت

أن تمسك يده وتضعها على صدرها، لكن اليد انسحبت. اقترب منها وغمرها بجسده كله، قبل أن يدير لها ظهره وينام.

أليس لم تنم تلك الليلة. كانت تنتظر الفجر، لكن الفجر لم يطلع. تريد أن تنام مع رجل، لكن هذا الرجل ذهب في إغفاءة عميقة. أغفت أليس دون أن تدري أنها نامت. وحين استفاقت وجدت العتمة نفسها. نهضت، حاولت أن تفتح الباب، لكنه كان مقفلاً بالمفتاح، حاولت أن تفتح الستائر، لكن الستائر لا تفتح. عادت إلى السرير ونامت من جديد. بعد وقت لا تذكره، انفتح الباب وجاء رجل البارحة ومعه مصباح على البطارية، طلب منها أن تلبس وتتبعه. لبست وتبعته، مشى بها في ممرات طويلة لا تنتهي. أمس لم تلاحظ أليس هذه الممرات، ربما لأنها شربت الكثير من الشمبانيا، واليوم لم تنتبه متى غادرها الرجل الأسود، ربما لأنها نامت. أمام الباب أعطاها الرجل مظروفاً مليئاً بالمال، وقال لها إن السائق سيوصلها إلى الفندق، وأن الموعد غداً. وحين وصلت أليس إلى الفندق لم يجرؤ الامبرازاريو أبو جميل أن يسألها شيئاً أو يطالبها بشيء من حصته. الاتفاق كان أن تدفع له خمسين بالمئة من البراني. ذهبت إلى غرفتها ونامت حتى المساء. وفي اليوم التالي تكررت الحكاية. ثلاثة أسابيع والحكاية تتكرر كل يوم.

في اليوم الأخير، حين كان الرجل الذي بلا ملامح شبه نائم، جلست أليس على السرير وقالت إنها ستغادر غداً. اعتقدت أنها سمعت كلمة «زين» تخرج من فمه. أليس غير متأكدة، هل هو الذي تكلم أم أن كلباً عوى في الخارج. لم يقل غير كلمة واحدة، وفي تلك الليلة قرصها كثيراً حتى امتلأ جسدها بكدمات اضطرتها حين عادت إلى بيروت للتوقف عن العمل لمدة أسبوع.

ذهبت ذكريات الرجل الأسود معه. نسيته أليس وعادت إلى عملها في «الميرابيل»، ترى الملازم طنوس في آخر الكاباريه لا يجرؤ على الاقتراب منها، تبتسم له ويذهب، وتنصرف هي إلى سماع حكايات الزبائن، وإلى التعجب من هذه المآسي التي تختبىء خلف كروشهم.

وبعد سنتين، جاء أبو جميل ليقدم لها الاقتراح نفسه: الموصل. ترددت أليس طويلاً، وأبو جميل يفرك بيديه ويقول إن باب الرزق انفتح والرجل لم يتوقف عن طلبك. أليس ترددت فهي تذكر من الموصل ذلك الظلام المخيف، تذكر أنها كانت تخاف، وأن الرجل كان يتسلقها كأنها شجرة وليس كأنها امرأة. لكنها ذهبت. ومرة ثانية لفّها ظلام طويل لمدة شهر لا تعلم كيف استطاعت أن تهرب منه.

هكذا الأشياء.

«الأحصنة كانت خضراء»، قال غاندي.

وغاندي الصغير كان عاجزاً عن نسيان الأحصنة الخضراء. الأحصنة تدوس ظهور الرجال، والرجال يتأوهون. كان اسمه «خميس المشايخ». وكان الطفل الذي يرى بعين واحدة، يدور بين أقدام الرجال، وهو يحاول أن يرى. كانت الأحصنة تظهر بين أقدام الرجال، بلونها الأخضر. لم ير غاندي الصغير أحصنة خضراء إلا في «خميس المشايخ». وحين سأل القسيس أمين عن الأحصنة الخضراء، ضحك القسيس وربت على ظهره، «أنت بسيط»، وقال شيئاً من الانجيل عن الذين يرثون الأرض «طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض».

«شو يعني طوبى يا قسيس»، سأل غاندي.

«طوبى يعني نيّالهم. نيّالك يا غاندي لأنك شفت الحصان الأخضر. هيدا حصان ما حدا شافه إلا القديس يوحنا».

«سلّملي على يوحنا»، يا مولانا.

الأحصنة الخضراء تتهاوج بين الأقدام والرجال ينبطحون، والشيخ يتمتم ويزفر. يجلس وحيداً على دكة عالية، وحوله يدور المشهد. ينهض رجل من تحت حوافر الخيل ويركض باتجاه الشيخ يقبل يده ويبكي. هكذا كان يفعل حصن والد عبدالكزيم غاندي. ينبطح أرضاً فتدوس الخيول الخضراء ظهره، ثم ينهض باكياً باتجاه الشيخ. كانت دموعه تبقى معلقة في عينيه ثلاثة أيام. الدموع تعلق بالعينين كأنها حبات بلور صغيرة، تتأرجح بين الجفون ولا تسقط. وعندما مات الرجل وجاء غاندي الصغير إلى القرية ودخل الغرفة حيث سجي الرجل داخل كفنه الأبيض، لم ير الدموع في العينين. كانت العينان مطبقتين وسوداوين كأنهما حجران صغيران. يومها

بكى غاندي. لا يعرف من أين جاء هذا الحب للرجل الذي قتله في المغارة. فجأة شعر أن هذا الرجل هو والده وأنه غريب في «مشتى حسن».

بعد الدفن أخذه ابن عمه إلى زاوية في البيت وحدثه عن فوزية. قال ابن العم الذي يعيش في طرابلس، إنه انتظره طويلاً، وأن البنت يجب أن تتزوج، وأنه أولى بها.

وافق غاندي بحركة من رأسه، أخذ عمه يده اليمنى وقال: «نقرأ الفاتحة». وقرأوا الفاتحة. وبعد شهر عندما رجع غاندي إلى القرية من أجل أن يتزوج، قالت له زوجة أبيه السوداء الشعر، قالت له تلك الغجرية التي أوصلته إلى المغارة، إنه يستطيع أن يبقى في البيت. لكنه لم يكن يريد. كان مهتماً بإتمام الزواج بسرعة والعودة إلى بيروت، وتم الزواج بأقل: التكاليف ليمون وسكر وزغرودة واحدة من زوجة أبيه. أخذ فوزية ورجع إلى بيروت، ومن يومها لم يعد إلى القرية أبداً. بلى عاد إلى «مشتى حسن» من أجل سعاد. قالوا له إن الشيخ يستطيع أن يشفيها. ذهب غاندي إلى الشيخ ومعه الفتاة بعينيها المذهولتين وجسدها النحيل وكلامها المتقطع. أجلسها الشيخ أمامه في غرفة مظلمة، وبدأت روائح البخور وأصوات الكلمات الغامضة. طلب الشيخ خمسين ليرة وأعطى غاندي حجاباً. لكن البنت لم تشفَ، بل زادت حالتها سوءاً، ولولا رحمة الله لقتلوها.

«المجنونة هربت وحدها إلى النبعة»، قال غاندي إنها رحمة الله، لولا رحمة الله لراحت البنت وماتت بعارها. «الدواء انقطع»، قال غاندي لأليس، «البنت صارت ما بعرف كيف، تمشي وتطرطق بالحيطان، وبعدين اختفت. قلت راحت عليك يا غاندي، البنت راح تبطل مجنونة، بس راح تموت، إذا هني ما قتلوها أنت راح تقتلها».

غاندي لم يقتل البنت. عادت سعاد بعد ثلاثة أيام بالنظرات نفسها. كأن لا شيء. لو اغتصبوها لشفيت، فكّر غاندي. عادت إلى البيت وكأنها لم تذهب، فقط ازدادت تأتأتها قليلاً، وحكت كلاماً غير مفهوم.

«بتحكي طالع نازل، تعال واسمع»، قال غاندي لرالف.

رالف كان غير مهتم، دخل إلى البيت متعباً، وجلس مع أخته واستمع إليها وصار يضحك. والفتاة أخبرت قصتها للجميع، لكن لم يفهم عليها أحد. هل صحيح أنهم أخذوها إلى كاراج وهناك حاولوا اغتصابها، لكن أحدهم بدأ يتقيأ ويرتجف، فتركوها وهربوا. أم أن الحقيقة هي «تينو»، وهذا هو لقب زعيمهم كما يبدو، «تينو» قال لهم أن يتركوها لأنها مجنونة ولأنها ستحمل إليهم أمراضاً لا يعلم الله أنواعها. أم الصحيح أن المشعلاني، «اسمه ما بعرف شو اسمه، هو يللي خلصني، شعلة، بلى شعلة»، أم أن شعلة أو المشعلاني هو الذي بدأ ينطح رأسه بالحائط ويصرخ «اتركوها، أنا ما بسمح، أنا»، وأخذها وأخرجها من الكاراج وأوصلها إلى المتحف.

لم يعرف أحد ماذا جرى مع البنت عندما هربت إلى بيتهم القديم في النبعة، في المنطقة الشرقية من بيروت، وعادت كما ذهبت.

«حتى المسلحين أولاد الكلب لم يمسّوها. أنا قلت لابن العم، يا ابني خدها، خدها يوم واحد وبعدين إذا ما بدك ردها. هيدي البنت ما تصح إلا إذا سيّل دمها رجال. بس الكلب رفض. قلت له ردها، بلا مقدم ولا مؤخر، أنا بدفع. بس خاف. هو كمان خاف. هي البنت شوبها، يا عمي بنت متل القمر. بس هو كلب، كلب وريحته طالعة ورفض، قال ما بده يتزوج، حدن بيرفض يتزوج. قال مرته ما بتقبل، حدن بيرفض يتزوج على مرته».

وعادت البنت، وعاد غاندي الصغير من كل جولاته من أجل شفائها خائب الأمل. زوجته قالت: «هذا نصيبنا يا رجل، لازم نقتنع، القناعة كنز». واقتنع غاندي بكنزه وتوقف عن البحث.

غاندي أخبر القسيس أمين بالحكاية، لكن القسيس لم يفهم شيئاً، نظر إلى غاندي بعينين غائمتين وشخر كأنه نائم. غاندي صار يعطف على القسيس. يمر به في منزله في الطابق الثاني من البناية المطروشة بلون بنفسجي كأنها حبة معلّل. غاندي صار اليوم يذهب إلى القسيس ويعطيه خبزاً وبعض الليرات. والقسيس يبدو كالغائب عن الوعي. ولولا تدخل أليس لأنتهى مكرسحاً على رصيف كنيسة «السيدة» في شارع المكحول.

يذكر غاندي القسيس في شبابه. كان ذلك بعد مجيئه إلى بيروت، وفي عزّ أزمة موت الكلب. فبعد موت كلب المستر دافيز، عاد غاندي إلى مهنته الأصلية، جلب صندوق البويا وجلس أمام الجامعة الأميركية. غاندي استشار القسيس أمين في مشروعه الجديد. اشترى كلباً بدلاً من «فوكس»، وسماه «فوكس»، وحاول أن يقنع المستر دايفيز، لكن المستر دايفيز كان عاجزاً عن الفهم. يمشي وحيداً في شارع «بلس» أمام الجامعة الأميركية وهو عاجز عن الكلام.

قالْ جون دايفيز إن مهمته فشلت في لبنان.

قال إنه أتى وصار عربياً مثل العرب، أحب الناس وبيروت والسمك المقلي والقرنبيط والطرطور، أحبهم وصار واحداً منهم، لكن من المستحيل. الشرق همجي، لولا الهند وغاندي الأصلي لبقي الشرق همجياً.

جون دايفيز لا يفهم كيف ضحك الرجل عليه وهو ينحني مرتجفاً أمام كلبه الميت.

«كلب يا خواجة، بسيطة»، وبصق الرجل.

لم يكتف بقتل الكلب بل بصق عليه لأنه نجس.

يومها انقطعت علاقة دايفيز بالقسيس أمين. القسيس أمين حاول أن يخفف وقع الصدمة عن دايفيز، وأن يساعد غاندي على تربية الكلب من أجل صديقه الأميركي، ومن أجل صداقتهما. لكن الأستاذ الأميركي لم يحتمل الصدمة، ولم يفهم دفاع القسيس أمين عن العرب، ورفضه لكلامه. كانت صداقتهما مشهورة، القسيس أمين يتكلم معه الانكليزية بلهجة نيويورك التي لا يعرفها، ودايفيز يجاوب بعربية أبناء بيروت التي لا يتقنها. دايفيز يدرس فلسفة الأخلاق في الجامعة الأميركية، والقسيس أمين مسؤول عن رعية رأس بيروت التابعة للكنيسة المشيخية. كلاهما على المذهب البروتستانتي. القسيس أمين يعتقد أن أميركا هي الحضارة والتقدم والحرية، والمستر دايفيز يكره مدينة نيويورك التي عاش فيها ودرّس في جامعاتها ويحب الشرق والتوابل والعرب. حكاية المستر دايفيز طريفة، خاصة حين يروي كيف درس العربية على يد الحلاق مصطفى الغلاييني، قبل أن يدرسها في شملان، في المدرسة التي أنشئت خصيصاً لتعليم الأجانب اللغة العربية. مستر دايفيز الذي عاش مع زوجته، وحيداً دون أولاد، غادر بيروت قبل بداية الحرب الأهلية عام ١٩٧٥، بسبع سنوات. ويبدو أن حادثة مقتل الكلب كانت حاسمة في تقرير مصيره. قال المستر دايفيز للقسيس أمين إنه يشعر بوحدة قاتلة، وأن كل عمله في لبنان كان فشلاً بفشل.

«فجأة أشعر أنني غريب، أشعر أن لا أحد، لا أحد في العالم يهتم بي. وزوجتي المريضة دائماً، تريد أن تعود إلى أميركا. هنا بلادي، لكني سأسافر. كله فشل. أنا لست حزيناً على الكلب، لكن كيف بصق عليه، كيف»؟.

انحنى الأستاذ الأميركي فوق كلبه المحتضر وسط الشارع، والسائق الذي دهسه بسيارته نزل من السيارة وبصق. أحس الأستاذ أن كل شيء قد انتهى، ولم تنفع محاولات القسيس أمين، وإشرافه على تربية «فوكس» آخر اشتراه غاندي الصغير، وهو من نفس فصيلة الكلب الميت.

وحين رفض الأستاذ الكلب، وأراد غاندي التخلص منه، اقترحت ليليان قتله. القسيس هو الذي ذهب إلى الصيدلية واشترى السم الذي سقاه إياه غاندي مع الحليب.

غاندي الصغير لم يكن يحب القسيس أمين، فهو على الرغم من لطفه ولطف أبناء رعيته، كان متكبراً، يتكلم بصوت منخفض، ويستخدم لهجة هي مزيج من اللهجة البيروتية واللغة الفصحى. يهز رأسه كثيراً ليوحي بأنه يتفهم الآخرين، لكنه كان يفعل ما يحلو له. رائحة الويسكي تفحّ من فمه بشكل دائم، وحكايات مغامراته مع ليليان صباغة يعرفها الجميع، أو صاروا يعرفونها، بعد أن فضحتها مدام صباغة في إحدى نوباتها الجنونية، يوم ماتت خادمتها الروسية «فيتسكي نوفيكوفا». وقفت أمام غرفة الخادمة وهي تضع منديلاً على فمها وبدأت تولول. ثم شتمت القسيس أمين وروت الفضائح.

غاندي صار يهتم بالقسيس أمين لأنه يشفق عليه. زوجته تركته ولحقت بأولاده في أميركا، وهو دخل في الانهيار الكامل. صار القسيس يشخ تحته ويترشق كلمات غير مفهومة. يذهب كل صباح إلى كنيسة السيدة، يقف أمام

أيقونة العذراء، يصلّب بمطانيات رهبانية، بأن ينحني حتى يلامس جبينه الأرض، ثم يقف كالمعتوه أمام الباب الملوكي. يرفع يديه الى الأعلى ويتقدّم من الهيكل، والخوري يوحنا يأخذه جانباً ويطيّب خاطره، ويذكره بأنه قسيس وأن عليه الاهتمام برعيته. لكن يبدو أن القسيس أمين نسي كل شيء. نسي رعيته ونسي أنه بروتستانتي، ولم يعد يتذكر من الصلوات إلا جملةٍ واحدة: «ذكصا باترى كي يي يو، كيا ييو بنغمتي، كانين كيايي كييستوسا يونا ستونيون آمين».

الخرف، يقول الخوري يوحنا، وهو يشكر أليس على لطفها.

«يا بنتي، أنت بنت حلال، الله يستر آخرتك».

والقسيس أمين نسي كل شيء. نسي أنه متزوج وعنده أولاد، ولم يعد يعرف إلا الصلاة باليونانية. نسي حكاية جدته أم طانيوس في صيدا وهي تصرخ «يا حبيبي يا محمد»، ونسي كيف صار قسيساً بفضل المعروف الذي أسداه القسيس سليم لوالده في الحرب العالمية حين أنقذه من المجاعة عبر تعيينه أستاذاً في مدرسة الفنون في صيدا، فصار الوالد بروتستانتياً، دون أن يتوقف عن عادة رسم إشارة الصليب.

نسي القسيس كل شيء. حتى مدام صباغة التي أرادها أن تطير، وكان يقول لها إنها عاجزة عن الطيران لأنها امرأة تافهة، وأنه يحبها لأنه اكتشف أنه لا يصلح للنساء. نسي كل شيء، وصار مرمياً ووحيداً أمام كنيسة السيدة، لا يهتم به أحد، وسط قذائف الحرب التي تطير وتحول المدينة إلى صحراء من الوجوه التائهة.

وحين أخذته أليس إلى دار العجزة في الأشرفية، كان غير قادر على الكلام. كان يقف أمام الكنيسة، وحوله بعض المسلحين الذين يسخرون منه، وهو كالتائه، رائحته وسخة، ولحيته غير حليقة، ويداه تتعلقان بدرابزين الكنيسة الخارجي كي لا يقع.

أخذته أليس إلى البيت وغسلته، وألبسته ثياباً نظيفة وأطعمته. ركبت تاكسي وقطعت به إلى بيروت الشرقية، حيث أوصلته إلى أمام مأوى العجزة في الأشرفية.

الراهبة أفدوكيا، التي كانت تجلس خلف طاولتها، والثياب السوداء تغطيها، ولا يظهر منها سوى وجه مستدير أبيض، مليء بشعيرات مشقرة بفعل الأوكسجين، وتالولة تحت أنفها، ينبت منها ثلاث شعرات سوداء، رفضت إستقبال الرجل. قالت إنها تريد مالاً.

«ولو يا ماسور، دخيلك الرّجال وحيد وما عنده حداً، بعدين هيدا مسيحي، وأنتم مجبورين فيه».

«مش ممكن»، جاوبت الراهبة.

بكى القسيس أمين، كان كأنه استعاد شيئاً من ذاكرته، أو كأنه رأى نفسه أمام المرآة. بكى، وصلّب وصرخ: «ذكصا باتري كي يي يو». لكن لا البكاء ولا الصلوات نفعت مع الأخت أفدوكيا. فدفعت أليس ألف ليرة وقالت لها إنها ستدفع أول كل شهر.

إنحنت أليس على يد القسيس وقبلتها، وعادت إلى رأس بيروت.

عادت أليس وأخبرت غاندي. أخبرته كل حكاياتها، عدا لحظة جنون الضابط. «الضابط جنّ، ما كان ضابط وبس، كان زعيم، ويمكن كان رئيس جمهورية».

أليس لا تعرف كيف سمحوا لها بمغادرة تلك البلاد. لكن غاندي لم يصدقها، وأنا أيضاً لم أصدقها(*).

(*) فصل من رواية «رحلة غاندي الصغير» التي تصدر عن دار الآداب هذا الشهر، تأليف الياس خوري.